

88 - تبرير زواجهما في بيتها الريفي

لديك الآن يا إميليانوس السبب الكامل لعقد قراني ببودنتلة في ضيعة بالضحية بدلا من المدينة: كيلا نبذر خمسين ألف درهم إضافية في الأكل معك أو عندك. أفتراه سببا وجيها؟ لكنني أعجب من نفورك إلى هذا الحد من الضيعة. أنت الموجود غالبا في الريفي! ناهيك أن قانون يوليوس* عن ترتيبات الزواج لا يحظر ذلك مطلقا ناهيا بهذا النحو: "لا تتزوج في ضيعة". بل إن شئت الحق من جهة الإيجاب، الزواج أكثر مينا في الضيعة منه في المدينة. على أرض معطاء منه على أرض عقيم. على عشب الحقل منه على صخر القصبية. حتما ستكون أمّا من تتزوج في حوضن أم ولود، بين زرع موعن وعلى تربة خصبة، وتنام عروسا في ظل الدردار في حجر أمنا الأرض. بين فسائل الأعشاب ورفائد الكروم وبذور الأشجار. هناك ينطبق تماما ذلك البيت الشهير في إحدى الملاهي: "لتزرع الأرض ولتزدن بنسل طيب الأعراق".* كان قدماء الرومان أضراب كونتوس* وسرّانوس يتلقون في الحقول لا الزوجات فقط بل كذلك القنصليات والدكتاتوريات* وكثيرا من المهام الشبيهة. عليّ أن أمسك نفسي عن الإسهاب في هذا الموقع الثري بالمعاني كيلا أفعل شيئا يسرّك بمدح الريفي.

89 - عمر بودنتلة

أمّا عن عمر بودنتلة الذي بعد كل هذا كذبت بخصوصه بثقة في النفس مدعيا أنها تزوجت في الستين، فبعد قليل سأرد عليك بشأنه في قليل من الكلمات، إذ لا أحتاج إلى كثير منها

لناقشتك في مسألة يمثل هذا الوضوح، صرّح أبوها بميلاد ابنة له على عادة بقية الأهالي. وسجلات ميلادها محفوظة جزء في دار السجلات العامة وجزء بالبيت، وستعرض أمام عينيك. أنت، مدّ لإميليانوس تلك الوثائق. ليتفحص الخيط (الذي يربطها). ولتعرّف على الخواتيم المصومة عليها. ليقرأ اسم القنصلين في ذلك التاريخ وليعدّ السنين التي كان ينسبها لزوجتي على أنها ستون. ليثبت منها خمسا وخمسين يكن قد كذب بخمسية كاملة. هذا قليل. سأعامله بمزيد من السخاء فقد جاد عليها بعدة أعوام. لذا سأعيد له في المقابل عشر سنين. فقد تاه ميزنتيوس مع أوديسيوس*: ليظهر لزوجتي حتى خمسين عاما. فيم الإطالة؟ كما في التعامل مع رباع*. سأضاعف السنين الخمس مرتين: سأطرح دفعة واحدة عشرين سنة. مرّ يا مكسيموس بعد القنصل جُد بودنتلة، إن لم أخطئ؛ لا تجاوز الأربعين بكثير. فيا للخط الفاحش الجسور، ويا للكذبة القمينة بعشرين عاما من النفي عقابا! أنت تكذب يا إميليانوس بنسبة النصف، وتجرو على تقديم تقديرات تبلغ نسبة الواحد والنصف. لو قلت ثلاثين سنة عوض عشر، لأمكن أن تبدو قد أخطأت بسبب غلطة في حركة أصابعك: قرنتها بينما كان المفروض أن تدورها. أمّا الأربعون، التي تمثّل بنحو أسهل من العقود الأخرى ببسط الكفّ، فلا يمكن إذ زدتها بنسبة النصف أن تكون أخطأت في حركة أصابعك، إلا إن كنت رما حسبت لبودنتلة ثلاثين حولا فضاعفتها بناء على عدد القنصل*. *

90 - ما يُنسب له من جرائم لا يتماشى مع

شخصيته

لكنني أدع هذه المناقشات وأتي الآن إلى صلب دعواهم، إلى سبب فعلتهم السيء. ليجب إلميانوس وروفينوس: حتى لو كنت ساحرا حقا لأية فائدة كنت سأدفع بطلاسمي وعقاقيري بوندتلة إلى الزواج بي. إذ أعلم أن كثيرا من المتهمين بجرمة ما طلبوا للمحاكمة إذا ثبت أن لديهم باعنا ما رما أدى إلى ارتكابها. ومع ذلك دافعوا عن أنفسهم بنحو ضاف واف: من منطلق أن حياتهم تتنافر مع نوع الجريمة ولا يجوز اتهامهم لمجرد توفر بعض دوافعها لديهم كما يبدو. فعلا لا يجب اعتبار كل ما أمكن حصوله قد حصل فعلا. فصرفو الدهر تأتي بشتي الأحداث، وسيما أي شخص هي طبعه الذي يدفعه باستمرار إلى الفضيلة أو إلى الشر. وهذا لعمرى برهان متين يعتمد لتجوز أو استبعاد تهمة. مع أن بوسعي قول هذا وأنا على حق. أننازل لكم عن ذلك. وما بكاف عندي تفنيد كل ما اتهموني به بنحو مستفيض. إلا إن لم أترك مجالاً لأدنى ظنة بممارستي السحر. تناقشوا فيما بينكم حول مدى ثقتي ببراءتي واحتقاري لكم. إن وجدتم أدنى مبرر لرغبتني في الزواج ببوندتلة من أجل مصلحة أرجوها. إن أنبتتم أدنى غنم أكسبه. إذن لاكونن من لف كرمنداس* أو دامقرون* أو موسى* أو يانس* أو أبولوبكس* أو حتى دردانوس* أو أي شخص سواهم أشيد بذكره بين السحرة بعد زرادشت وأستانس.

91 - بنود عقد الزواج تنفي الدافع النفعي

انظر أرجوك يا مكسيموس أية ضجة أثاروا لأنني استعرضت أسماء بضعة سحرة*. ما العمل مع أناس جهلة أجلاف مثلهم؟ أعلمهم مرة أخرى أنني قرأت هذه الأسماء وأخرى كثيرة في المكتبات العامة عند كتاب مشاهير؟ أم ألح في جدالهم بأن معرفة الأسماء شيء وشيء سواه المشاركة في الصنعة نفسها. وألا يجب اعتبار معرفة المرء بعلم وتذكره ما تعلم في الكتب اعترافا بجرمة؟ أم - وهو أفضل - أنف يا مكسيموس. معولا على علمك وسعة ثقافتك. الرد على مزاعم هؤلاء الحمقى الذين ليست لهم أية ثقافة. سأتصرف بالأحرى بهذا النحو: لن أعير بالا ما يفكرون. وسأواصل إثبات ما بدأت أبين لك: أن لم يكن لدي أي داع لأغري ببوندتلة بالزواج مني بأخذات سحرية.

هم استبعدوا من تلقاء أنفسهم جمال زوجتي وسننها. ونسبوا لي خسة طلبها زوجة بدافع الطمع في مالها. ولذا بادرت منذ لقائنا الأول إلى ابتزاز مهر واف وافر. للرد على هذه المزاعم. لا أرى أن أتعبك يا مكسيموس بخطبة طويلة. لا حاجة إلى الكلمات لما تتكلم بلغة أبلغ بكثير قسيمة الزواج حيث كل ما نص عليه العقد ينافي ما تخيلوا عني بوحي من ضراوة جشعهم. إليك بالوقائع الحاضرة والشروط المستقبلية: أولا أن الصداق المتواضع الذي مهّرت به هذه المرأة الموسرة لم يقدم نقدا بل احتسب دينا فقط. ثم إن الزواج عقد على أساس هذا الشرط: إن تتوف دون أن تخلف عقباً من صليبي. يبق كامل المهر عند ابنها بنتيانوس وبوندنس. لكن إن أتاها الأجل وقد خلفت ابنا

أو بنتا فإذاك يؤول قسم من المهر إلى الولد المتأخر، والباقي إلى السابقين.

92 - المهر زهيد بالنظر إلى وضع بوندتلة كأرملة موسرة

سأبين هذا، كما قلت، من القسيمة ذاتها، قد لا يصدق إميليانوس أن العقد نص على ثلاثمائة ألف درهم فقط، وعلى ردها إلى ابني بوندتلة. خذ أنت نفسك تلك الوثيقة بيدك، وسلمها لمحرّضك روفينوس، ليقرأ وليخجل بنفسه الجشعة وكذبه الواشي بأطماعه. فبينما مهّره هو المعدم، ابنته بأربعمائة ألف درهم تسلّمها من مقرض. اكتفت بوندتلة المرأة الثرية بثلاثمائة ألف وتزوجت رجلاً أعرض مرارا باحتقار عن مهور عديده ووطائلة، مكتفياً بذلك المهر الزهيد، بل باسمه الخاوي، غير مول لغير زوجته أدنى اعتبار، واضعاً كل هيل وهيلمان في المودة والوئام بين الزوجين.

من له بكل هذه الأمور أدنى معرفة ويجرؤ على الطعن في أن تزوج نفسها أرملة متوسطة الحسن غير متوسطة السن راغبة في الإحصان بمهر مؤجل وشروط ميسرة شاباً لا يعاب هيئة ولا همّة ولا ثروة؟ فالبكر الحسنة، حتى لو كانت في منتهى الفقر، تحتاج إلى مهر وافر، مع أنها تحمل لا محالة لعِرسها براءة سجيبتها ومزينة حسننها وزهرة شبابها، والبركة في حد ذاتها ميزة قيّمة ينمّنها كل الأزواج كما هو مشروع وموافق للعرف، فما تطلق من شيء مهراً تستطع متى شئت، وكبلا تظل مرتبها

لنفع أفدته، رده كاملاً مثلما استلمته: تسدّ المال وتُرجع العبيد وتُخلي البيت وتنسحب من العقارات، البركة وحدها يتعدّر ردها إذا تسلّمتها، هي وحدها، من بين كل مقومات المهر، تبقى عند الزوج. أمّا الثيب فكما تأتي إلى الزوج تعود منه عند الانفصال. هي لا تحمل معها شيئاً يتعدّر استرجاعه، بل تأتيك وقد فقدت بفعل غيرك بكارتها، ثم هي بلا شك غير طيّعة لك في ما تريد، وما سوء ظنّها ببيتها الجديد بأقل مما يفترض أن تثيره في نفسها من الرّيبة بسبب انفساخ زواجها السابق، سواء فقدت بعلمها بالموت- وهو ما يجعلها نحسة غير مرغوبة للزوج- أو انصرفت من عنده بالطلاق، والمرأة معيبة في كلتا حالتها: سواء كانت شكسة يتعدّر احتمالها فطّلت أو نزقة ضيقة الصدر فطّلت.

لهذه الاعتبارات وغيرها حاول الثيب اجتذاب الخطاب بمهر مزيد. وذلك ما كانت بوندتلة ستفعل بدورها لو لم تعثر على فيلسوف يستخف بالمهر*.

93 - مساعيه الحميدة بين الأمّ وابنيها تنفي آية

مطامع

لكن ويحكم، لو ابتغيت تلك المرأة بدافع الطمع فأبي شيء كان أجدى بي للاستيلاء على بيتها من زرع الشقاق بين الأمّ وولديها، واجتثاث محبة ابنيها من قلبها فأستفرد بامرأة مهجورة من ذوبها بسهولة وإحكام، أليس هذا تصرف شخصية اللص التي اختلفتم؟ والحال أنني تصرفت كفاعل خير ووسيط

صلح وسلام. وساع بالوفاق والوئام. فلم أمتنع عن زرع بذور شفاق جديدة فقط. بل كذلك استأصلت الصغائن القديمة تماما. أشرتُ على زوجتي التي يزعمونني التهمتُ كلَّ ثروتها. أقول إذن: نصحتها وفي النهاية أقنعتها أن تسلّم المال الذي ذكرتُ سابقا لابنيها المطالبين به بدون تأخير في شكل عقارات مقدّرة بأبخس ثمن وقدر ما كانوا يبتغون. وأن تعطيهما علاوة على ذلك من ثروتها الخاصة أخصب الأراضي. وبيننا فخما مجهّزا بكلّ التسهيلات وكميّة كبيرة من القمح والشعير والتبّيد وزيت الرّيتون ومحاصيل أخرى. وما لا يقلّ عن أربعمئة عبد. وبالإضافة إلى ذلك غنما لا قليلة ولا زهيدة القيمة. حتّى تطمئنهما بتلك البادرة الطّيبة وخصي لديهما الأمل في بقيّة الأملاك التي سيؤول إليهما ميراثها. بمشقة حصلتُ على هذه الإجراءات من بوندتلة وهي تمنع- لتسمح لي هنا بأن أقول الأمر كما كان*- وانتزعتُها متوسّلا إليها بالجاح وهي كارهة وغازبة. صالحتُ الأمّ مع ابنيها وبأولى أيادي زوج أمهما هذه زدتُ ثروة ربيبي.

94 - بنتيانوس يسارع بتصحيح خطئه. رسالة

أويتوس

هذا معروف للمدينة بأسرها. كلّ المواطنين أثنوا عليّ مبدلين بغضهم لروفينوس. وكان بنتيانوس قد جاء لزيارتنا مع أخيه ذلك المتخلف عنه تماما قبل أن تقدّم لهما تلك الهبة. فخرّ عند أقدامنا ليطلب الصّفح ونسيان كلّ حزازات الماضي باكيا ولاثما أيدينا ومعلنا أسفه على الاستماع لروفينوس وأمثاله. ثمّ رجاني متوسّلا أن أبرّئه كذلك لدى لُليانوس أويتوس سامي المقام الذي

كنت قد أرسلته إليه بتوصية قبل مدّة وجيزة لتعلّم الخطابة إذ اكتشف أنّي كتبتُ له قبل بضعة أيّام كلّ ما جرى بالتفصيل وكما جرى. هذا أيضا حصل عليه. فأخذ رسالتي وسار إلى قرطاج حيث كان لُليانوس أويتوس ينتظرني يا مكسيموس وقد أنهى تقريبا مهمّته كوال. فلمّا قرأ رسالتي هتأ بنتيانوس على عظيم مروءته لأنّه سارع بتصويب خطئه. وردّ برسالة بعثها إليّ معه: أيّ علم صمّنتُ يا ألّهي الأخيّار، وأيّ لطف. وأيّة طلاوة للكلمات وفتنة في أن واحد. تماما "كرجل فاضل عليم بالبلاغة"*. أعلم أنّك يا مكسيموس ستستمتع إلى تلك الرّسالة بسرور. وإن سمحت بقراءتها فسأقرأها بصوتي. أنت، خذ رسالة أويتوس لأستخدم ما كان لي دوما عنوان شرف وسيلة للدّفاع عن نفسي أيضا. أمّا أنت فلا بأس. بإمكانك أن تدع الماء يسيل. لأنّي أودّ قراءة رسالة ذلك الرّجل العظيم ثلاث وأربع مرّات. ومهما اقتضى ذلك من الوقت. (...)

95 - مدح أويتوس

لا أجهل أنّ الأصول تقتضي أن أختم مرافعتي بعد رسالة أويتوس الذي لا إخالني أقدم شاهد براءة أجدر بالثقة ولا رقيبا لحياتي أصدق ولا محاميا أفصح منه. عرفتُ في حياتي كثيرا من الرّجال الفصحاء الحاملين اسم "رومانيّ" لكنّي لم أكنّ لأحد منهم نفس الإعجاب. ففي اعتقادي لا أحد اليوم يشهد له بشيء من البلاغة أو ينشد حظّا منها لا يفضّل بشأ أو أن يكون أويتوس إن أراد مقارنة نفسه به نابذا حبّ الذات والحسد. إذ جمّعت لدى هذا الرّجل كلّ المحسنات البلاغيّة بشتى أنواعها

تقريباً، وما من خطبة يؤلفها أويتوس إلا وتكون استوفيت بحثاً من جميع جوانبها حتى ليتعذر أن يستقل كاتون رزانتها أو لايلوس * رقتها أو غراكوس * قوتها أو فيصر * حماسها أو هرتنسيوس * تنصيدها أو كلووس * فكاهتها أو سألستيوس * اقتضابها أو شيشرون جزالتها. أقول باختصار، دون التّمادي في تعداد آيات بيانه: إن تسمع أويتوس لا تودّ أن تزيد أو تحذف أو تبدل شيئاً منها.

أرى يا مكسيموس بكم من الحفاوة تصغي إلي ما تتعرّف من محاسن صديقك أويتوس. فقد شجعتني بشاشتك على قول بضع كلمات عنه، لكنني لن أرخي للسان العنان مستعذبا لطفك إلى درجة السماح لنفسي - وقد استنفدت قواي تقريباً في هذه القضية المشرفة على نهايتها - بالشروع الآن في الإشادة بفضائله الفريدة، فالأولى أن أكرّس لتقريضها قواي فور استعادتها ووقتي فور توقّر بعض الفراغ فيه.

96 - رسائل بنتيانوس تشهد لصالحه

أمّا الآن فعليّ، وإن على مضض، العودة من الحديث عن ذلك الرّجل العظيم إلى هذه الطّعمة من السّفلة، أجرؤ إذن يا إميليانوس على مقارنة نفسك بأويتوس؟ أنتهم بجرمة السّحر المنكرة من يدعوه هو "رجلاً فاضلاً"، وبثني على همته بلا حَقْظ؟ أتري نفسك ملزماً بالاحتجاج على اجتياحي بيت بودنتلة واستنزافي أموالها أكثر من بنتيانوس الذي اعتذر لي عمّا طرأ وبنزغك بيننا من جفوة لبضعة أيّام وكذلك في غيابي لدى

أويتوس، إذ أثنى عليّ عند ذلك الرّجل العظيم، تصوّر إذن ماذا لو قرأت ما تمّ بيت أويتوس بدلاً من رسالته. بماذا تستطيع أو يستطيع أيّ أحد اتّهامي بذلك الشّأن؟ إذ كان بنتيانوس يقول إنّ ما تلقى من عطاء أمّه هديّة منّي أنا، ويسعد في قرارة نفسه بأنّه أوتي حظاً عظيماً لكوني زوج أمّه.

ألا ليته عاد سالماً من قرطاج! أو ما دام قد حصل له ما قضى بشأنه القدر لبتك يا روفينوس لم حُلّ دون انكشاف حكمه التّهائّي فيّ! كم كان سيشكرني علناً أو في وصيّته! على أيّة حال أطلب يا مكسيموس أن تسمح بتلاوة قليل من الرّسائل التي بادر إلى بعثها إليّ من قرطاج أو وهو في طريقه إلينا، التي كتب وهو لا يزال بصحّة جيّدة والتي كتب بعد مرضه، المليئة كلّها شهامة والمفعمة حبّاً، ليعرف أخوه المدّعي عليّ كم ينحو في كلّ مجالات الحياة مجرى دون أخيه طيّب الذّكر. (...)

97 - خطّة روفينوس لبنتيانوس ثمّ بودنس

أسمعت بأية تسميات يدعوني أخوك بنتيانوس مراراً في السّابق كما في آخر حياته: "أبتاه"، "سيدي"، "معلّمي". يمكن أن أعرض رسالة ماثلة منك لو كنت أعدّها تستحقّ إضاعة ولو برهة وجيزة عليها، أوّد الآن بالأحرى أن تعرّض وصيّة أخيك الأخيرة - وإن لم يكملها - حيث يذكرني بامتنان وتقدير، لكنّ روفينوس لم يسمح بإعداد ولا إتمام تلك الوصيّة لغبنه من ضياع الإرث الذي حسبه أجراً للأشهر القليلة من مصاهرته لبنتيانوس على أساس سعر باهظ لليالي ابنته. كذلك سبق أن استشار

حول مكسبه من تزويج ابنته بعض المنجمين فأجابوه، على ما يقال- ولبتهم ما صدقوا- أن زوجها الأول سيموت بعد بضعة أشهر. وبطبيعة الحال لققوا بقيّة ردودهم وفق رغبة سائلهم كعادتهم*. لكن وبمشيئة الألهة عبثا فغر كوحش عم شدقيه للغنيمه، إذ لم يعين بنتيانوس بنت روفينوس وريثه له بعدما اكتشف خستها، بل لم يمنحها حتى هبة معقولة، وإنما أمر، زراية بها، بأن تخصص لها أقمشة بقيمة مائتي دينار* تقريبا، ليُفهم من ذلك أنه قدرها ذلك المقدار مستاءً، ولم يغفلها ساهياً. في هذه الوصية كما في السابقة التي قرئت عين وريثين له أمه وأخاه الذي، كما ترى، يستخدم روفينوس معه، وهو لا يزال غلاما، نفس الخيلة: ابنته، عارضا بل باطحا أمام ذاك الغلام التعيس امرأة تكبره بعدة سنوات وزوجة أخيه إلى عهد قريب.

98 - سرّ اهتمام إمليانوس وروفينوس بريبه، ومسؤوليتهما عن ضياعه

لكنه وقع أسيرا سلب الإرادة للملطفات المومس التي فتنت بها البنت لبه، وإغراءات القواد التي شبكه بها الأب، ومنذ أن لفظ أخوه أنفاسه غادر أمه ونزح إلى بيت عمه، ليسهل لهما بعد إزاحتنا إتمام ما بدأ من خطط، ذلك أن إمليانوس يوالي روفينوس ويتمتى لخطته التوفيق. واهأ، حسناً فعلتما بتنبهيه! فقد دمج العمّ الفاضل مطامعه الخاصّة بها وساندها، لعلمه بأن له كولّي قانونيّ لغلام بدون وصية حظوظا أوفر مما له كوريث معين بوصية طبق الأصول. ما كان بوّدي وحقّ هرقل أن يأتي منّي فضح أعوارهم، فمخالف لتحفظي تفجير ما يرتاب به

الجميع في صمت أمام الناس كافة، أسأما صنعا وعلى نفسكما جنيتما! كثيرون إن أردت الحق يا إمليانوس يعجبون من عنايتك المتفانية المفاجئة حقًا بهذا الغلام بعد موت أخيه بنتيانوس، بينما كنت سابقا جهله إلى درجة أنك كثيرا ما لم تتعرّف ابن أخيك من وجهه كلّمّا لاقيته في الطريق. لكنك الآن تسلس له قيادك بأناة وتفسده بتساهلك ولا تخالفه في شيء، حتى أنك تؤكّد بذلك ربّ المرتابين. استلمته منّا غلاما غريبا فجعلت منه في الحال كهلا محتكا، لما أخذته منّا كان لا يزال يتردّد على المعلمين، والآن يفترّ منهم إلى الخمار فرارا ويزدري أصحابه الجادين ويعيش على حادثه مع أراذل الشبان بين المومسات والأقذاح في هذه الوليمة المتواصلة مدى الحياة، هو الآن عندك سيّد البيت وأمر الخدم وربّ الوليمة. وهو مواظب على ارتياد ألعاب المجالدين يعرف أسماءهم ومبارياتهم وجراحاتهم غيبا كغلام كرم، بل منه هو يتعلّمها مدرّتهم نفسه*. لا يتكلّم أبدا بغير البونيقية* ويبرطم بنتف من اليونانية أخذها عن والدته إذ لا شأن ولا قبل له بالتكلّم باللاتينية، سمعت يا مكسيموس قبل قليل- يا للعار- ريببي، أخ بنتيانوس ذلك الشابّ الفصيح، يتأتى بمشقة لما سألته إن كانت أمهما قد أعطتهما فعلا ما ذكرت أنّها منحتهما بفضل جهودي.

99 - خلافا لافتراءات خصومه هو الذي منع بوندتلة من حرمان ابنها من ميراثها

لذا أستشهدك يا كلوديوس مكسيموس، وأشهدكم يا أعضاء المجلس، وأنتم أيضا أيّها الحاضرون معي في هذه المحكمة،

على أنّ تبعة كلّ هذه الأسواء والقبائح تقع على عمّه هذا، وعلى ذلك الطّامع في مصاهرته، وأنّي سأعدّد مدعاة لسروري* خلع ربيبي طوق ولايتي من عنقه، ولن أترجّي من أجله أمّه بعد اليوم، ذلك أنّي - وهو ما كدت أنسى - لمّا كتبت بودنتلة مؤخرًا وصيّتها - لتدهور صحّتها إثر موت ابنها بنتيانوس - جالدها طويلًا كيلا حرمه من الميراث بسبب كلّ تلك الإساءات الجسيمة والأذايا العظيمة. فلقد ترجّيتها وحقّ الآلهة بأحرّ التوسّلات أن تلغي بندًا خطيرًا أوصت به، بل بلغ إلحاحي حدّ تهديدها بالانفصال عنها إن لم أحصل منها على إسدائي هذا الجميل: أن تغلب بالإحسان إساءة ابنها. فلم أكفّ حتّى فعلت كما طلبت منها. يؤسفني أنّي أزلت عن إلميانوس هذا الهاجس، إذ كشفت له أمرًا ما كان يخطر على باله. لاحظ يا مكسيموس كيف طأطأ رأسه بعد سماع ما قلت، وكيف خفض صوب الأرض عينيه. إذ كان يعتقد - لا بدون مبرّر - أنّ الأمر أسوأ بكثير، لعلمه بمدى تأثر زوجتي بإساءات ابنها، وتعلّقها بي لعناياتي المتفانية. بخصوصي أيضًا كان هناك ما يخشاه: فلا أحد، حتّى إن كان يستخفّ مثلي بالميراث، يأبى الانتقام من ربيب شكس مسيء مثله. وقد حتّهم خصوصًا على رفع دعواهم ضدّي هذا الهاجس النّاغز: تخيلوا خطأً، لشخّ أنفسهم، أنّ زوجتي ستوصي لي بكلّ تركتها، أريحكم من تخوّفكم بالنّسبة للماضي، فما استطاع أن يزحزح نفسي عن موقفي الثّابت توفّر الفرصة للفوز بالإرث ولا للانتقام. جالدتُ أنا زوج الأمّ من أجل ربيبي السيّء والدته المغضبة، كما يجالّد الأب من أجل ابنه البارّ زوجته*. ولم يكف ذلك بل كبحتُ

أكثر ممّا يقتضي الإنصاف كرم زوجتي العظيم جّاهي.

100 - الكشف عن وصيّة بودنتلة وإفحام المدّعي

أنت، هات الوصيّة التي أعدّتها الأمّ لابنها المناوئ لها والتي أمليتُ. أنا صياد الثّروات الذي يزعمون، كلّ كلمة منها مع التّوسّلات، مُر يا مكسيموس أن يُفصّ الختم: ستجد ابنها هو وريثها، أمّا أنا فقد أوصتُ لي بهبة رمزيّة كنوع من التّشريف، حتّى لا يكون اسمي، بوصفي زوجها، غير مسجّل في وثائق زوجتي إن حدث ما كل به مرتّهن. خذها فهي وصيّة أمك، وإن تكن لا شكّ غير عادلة، كيف لا وقد حرمتُ فيها زوجها السّباق إلى خدمتها لتعيّن وريثًا لها ابنها الممعن في معاداتها، بل ولا حتّى ابنها في نهاية المطاف، وإمّا بالأحرى إلميانوس الطّامع في ثروتها، وروفينوس الحطّط لتزويج ابنته وتلك العصبية من السّكّيرين الذين يعيشون عالّة عليك.

أقول: خذها يا أبرّ البنين، وضعّ للحظة رسائل أمك الغراميّة وقرأ بالأحرى وصيّتها. إن كتبتُ شيئًا وهي فاقدة رشدها فستجده فيها، ومنذ البداية حقًا: "أعيّن وريثًا لي ابني سيكينوس بودنس". أقرّ بأنّ من يقرأ هذا البند سيحده جنونيًا حقًا، أيرتلك هذا الابن الذي في مأمّ أخيه أراد إخراجك من البيت الذي وهبته أنت نفسك، مستعينا بثلّة من السّشبّان الأوباش؟ الذي ساءه وثقل عليه أن يعيّنك أخوه وريثه معه؟ الذي تركك مع حسرتك وأسأك فارتًا من حزنك إلى إلميانوس وروفينوس؟ الذي قال فيك علنا وارتكب في حقك وبمظاهرة عمّه عديد الإساءات؟

الذي جرّج اسمك أمام المحاكم؟ الذي حاول القدح في عرضك أمام الناس مستخدماً رسالتك؟ الذي رفع دعوى جنائية خطيرة ضدّ من اخترت زوجاً وأحببت بكلّ وجدانك كما كان يعيب عليك هو نفسه؟ افتح، أقول لك، أيها الابن البار، هيّا افتح الوصية فبذلك سيكون أسهل عليك إثبات جنون والدتك!

101 - تفنيذ تهمة شراء أرض باسمه من مال زوجته

لِمَ تتمنّع، لِمَ تتأبى بعدما تخلّصت من هاجسك بشأن تركة أمك؟ ها أنا يا مكسيموس ألقى الوثائق هنا، في هذا المكان، أمام قدميك، وأشهدك أنّي منذ هذه اللحظة لن أشغل بالي بما تكتب بودنتلة في وصيتها. من الآن فصاعداً لنترّج أمّه بنفسه إن طاب له بخصوص أية وصية أخرى: فما ترك لي مجالاً لأترجّها من أجله بعد اليوم، منذ الآن زره يقل لها هو نفسه كشخص بالغ راشد أشدّ العبارات* ويهدئ غضبها. من قدر على الاتّهام سيقدّر على التّرجي*.

ها أنا قد قدّمت ما فيه الكفاية وزيادة إذ لم أكتف بتفنيذ الجرائم المنسوبة لي، بل استأصلت كذلك من الأساس جذر هذه المحاكمة، ألا وهو الحقد الناشئ من النزاع على الميراث. مع ذلك وحتى لا أغفل أيّ جانب من القضية، سأدحض قبل أن أختتم مرافعتي تلك التهمة الأخرى الموجهة لي: زعمتم أنّي اشتريت باسمي عقاراً جيّداً مبلغ طائل من مال زوجتي، وأقول إنّ بودنتلة، لا أنا، اشترت باسمها قطعة أرض صغيرة بستين ألف درهم، واسم بودنتلة موثّق في العقد وباسم بودنتلة دُفع المكس على

هذا الحقل الصّغير. الجابي* الذي دُفع المكس له، كروينيوس كيلر، وهو رجل كريم الشّمائل حاضر بيننا، وحاضر كذلك ولّي زوجتي، كسيوس لنقيوس، وهو رجل عظيم الوفاق والاستقامة، أذكره بكلّ تبحر، سلّ يا مكسيموس من كان مبرم الصّفقة، وبكم اشترت زوجتي الثريّة حقلها الصّغير.

(شهادة كسيوس لنقيوس ولّي الزّوجة وكروينيوس كليمنس جابي الضّرائب)

هل الأمر كما قلت؟ هل اسمي مكتوب في أيّ موضع من وثيقة الشّراء؟ ثمّ هل ثمن الحقل في حدّ ذاته ممّا يثير الحسد؟ بل هل لي علاقة بذلك على الأقلّ؟

102 - إفحام الخصوم

أما زال هناك يا إميليانوس ما لم أفنّده حسب رأيك؟ أيّة قيمة وجدت لسحري؟ لماذا إذن أحاول استمالة فؤاد بودنتلة بعقائيري؟ أيّة فائدة أجنبي من ذلك؟ أن تخصّص لي مهراً متواضعاً عوض آخر معتبر؟ يا للسّحر العظيم! أم لتوصي برّد ذلك المهر إلى ولديها بدل السّماح بتركه عندي؟ ماذا يمكن أن يضاف إلى هذا السّحر؟ أن تعطي لولديها وبتحضيضي ثروتها الواسعة التي لم تكن قبل زواجي بها تجود منها عليهما، وألاّ تمنحني شيئاً منها؟ لست أدري أأقول يا للطلّسم الفعّال أم يا للإحسان العقيم*! أم لتترك، في الوصية التي كتبتها في سورة الغضب على ابنتها، وريثاً لها ذلك الابن الذي أساء إليها بدلاً منّي أنا الذي خبّني؟ بجهد جهيد وبعديد التّرقى نلت هذه النتيجة!

بل تصوّروا حتّى أنكم لا ترفعون أمام رجل مستقيم متمسك بالعدل ككلوديوس مكسيموس، واستبدلوه بقاض منحرف وقاس منحاز إلى الدعاوي ميّال إلى الإذانة. أعطوه خطأ يتبعه! امنحوه أدنى إمكانيّة - وأيّة شبهة يمكن تصديقها - ليحكم حسب أفوالكم! اختلفوا على الأقلّ قرينة ما، فكّروا بماذا جيّون حين يسألکم: "ما دام لازماً أن يسبق سبب ما أيّ فعل متعمّد، أجيّوني لماذا تقولون إنّ أبوليوس غوى بزخارف سحره بodontلّة؟ ماذا كان يتغي منها؟ لماذا فعل ذلك؟ أكان يرغب في جمالها؟ تنفون ذلك. أكان على الأقلّ يطمع في ثروتها؟ تنفي ذلك وثيقة المهر، تنفيه وثيقة الهبة، تنفيه وثيقة الوصيّة حيث يظهر أنّه لم يكن يطمع بجشع في كرم زوجته بل وكان يدفعه بحزم فوق ذلك. أيّ سبب آخر إذن؟" لم تسكتون؟ لم تخرسون؟ أين مستهلّ عريضة دعاكم الشّنيع المقدّم باسم ربيبي: "سيّدي مكسيموس، قرّرت توجيه الاتّهام إلى هذا الشّخص؟"

103 - الخاتمة

لم لا تضيف إذن: "إلى معلّمي، إلى زوج أمّي، إلى شفيعي المدافع عتّي عندها؟" فماذا يأتي ترى بعد ذلك؟ "بجرائم عديدة وبينة". هات إذن واحدة من تلك الجرائم العديدة، هات واحدة ظنّية أو غامضة تماماً من تلك الجرائم البينة!

هأنذا أردّ على كلّ واحدة من تهمهم بكلمتين لا أكثر فعُدّ: "تلّمع أسنانك!" - اغفر نظافتي. "تأمل المرأة!" - واجب الفيلسوف. "ننظم شعراً!" - عمل مباح. "تدرس الأسماك!"

- معلّمني أرسطوطاليس. "تقدّس خشية!" - يوصيني أفلاطون. "تزوّجت امرأة!" - تفتضيني القوانين. "تكبرك سنّاً!" - يحصل كثيراً. "تنشُد المال!" - خذ الصّدق، تذكّر الهبة، اقرأ الوصيّة. إن رددت كلّ تهمهم باستفاضة، إن دحضت كلّ الافتراءات، إن برأت نفسي لا فقط من كلّ التّهم، بل وكذلك من كلّ ما يشاع عتّي نماً واغتيالاً، إن لم أنقص أبداً شرف الفلسفة الذي هو عندي أفضل من سلامتي، بل صنته بحرص أينما كنت، ماسكاً إتيّاه بسبع ريشات كما يقال، إن كان ذلك كما أقول فبوسعي أن أنتظر مطمئنّاً حكمك بإجلال وبلا وجل* من سلطتك فلأن يدينني والّ أهون في اعتقادي وأقلّ رهبة من أن يستهجنني رجل بمنل فضلك واستقامتك، والسّلام.